مجلة المعجمية - تونس

ع 23

2007

قَضَايَا التَّأْرِيخِ
في مُدَوَّنَةِ الشِّعْرِ الجَاهليّ المعْجَمِيّة

إبراهيم بن مراد

1 – تمهيد :

من المتّفَق عليه بيْن القدماءِ والمحدَثين أنّ الشعرَ ديوانُ العرب . فلقد كانت له منزلةٌ فُضْلَى في حياتهم . فكانوا – حسب عبارة اليعقوبي – يقيمونه "مقامَ الحكمة وكثير العلم (..) ، ولم يكنْ لهم شيءٌ يَرجعُون إليه من أحكامهم وأفعالهم إلاّ الشعر ، فبه كانوا يختصمُون وبه يتمثّلون وبه يتفَاضَلون وبه يتقاسَمون وبه يتناضَلُون وبه يُمدَحون ويُعَابُون" (1) . وقد عَدّ الجاحظُ من قبْله الشعرَ خصيصةَ العربِ الأسَاسيّة . فلقد قارَن بين الأمَم فيما اختصّتْ به وأكّد اختصاصَ العربِ بأشياءَ يتقدّمُها "قولُ الشعر وبلاغةُ المنطق وتشقيقُ اللغة وتصاريفُ الكلام" (2) . بل إنّ الجاحظَ يربطُ قوّة هذه المَلَكة عندهم بكونِ القرآن مُعْجِزَةَ الرّسُول . فلقد أنْزِل القرآنُ – وهو من حيث اللغة ضربٌ من القول ، لكنه قولٌ ذو خصائصَ مميّزة له عن سَائر الأقْوال – تحدّيًا للعرب في ضرْب آخرَ من القول قد برعوا فيه وتقدّمُوا على غيرهم من الأمم (3) ، هو الشعر .

---

(1) اليعقوبي : التاريخ ،304/1.
(2) الجاحظ : رسالة مناقب الترك ، ضمن : رسائل الجاحظ ، 70/1 .
(3) الجاحظ : رسالة حجج النبوة ، ضمن : رسائل الجاحظ ، 279/3 .

والأهميّةُ التي أعطاها العربُ للشعر في حياتهم وأعطاهَا العلماءُ له في التّعرف على أحْوَالهم ، نُعْطيها له اليومَ أيضا في التّأريخ للوحداتِ المعجميّة (4) في لغتهم ، فإن التأريخَ للوحدات المعجميّة المكوّنة لمعجَمٍ لغة مّا – في المعجَم التاريخي – إنما يُرْجَعُ فيه إلى النصوص أوّلاً . ذلك أنّ مؤلّفَ المعجم التاريخي لا يستطيعُ أن يؤرّخَ لظهور وحدةٍ معجميّة مّا في الاستعمال على ألسنة النّاسِ مثلَما يستطيع التأريخَ لظهورها في نصٍّ من النصوص . فإن النصَّ وثيقة مكتوبة قابلة للتأريخ ؛ أمّا الاستعمالُ غَيْرُ المدوّن فينتَمي إلى الشفويّ المرويّ الذي لا يَكتسبُ قوّةَ النصّ المكتوبِ المرْجعيّة . ولهذا كلّه فإن تأليفَ المعجم التاريخيّ – مثلما نجد في مُعْجم روبار التاريخيّ للغة الفرنسيّة (Le Robert. Dictionnaire historique de la langue française) (5) مثلا – يُرْجَعُ فيه إلى أقدمِ نصٍّ ظهرَت فيه الوَحدةُ المعجميّة المؤرَّخة أو المعنى المؤرّخُ من مَعَاني وَحْدة مُعجميّة مّا قد تطوّر استعمالُها عَبْرَ التّاريخ . وأقدم نصّ رجع إليه مؤلّفو مُعجم روبار التاريخي "قِيلَ" سنة 842م ، وهو "عُهود سْتراسْبورغ" (Les Serments de Strasbourg) ، وهو نَصّ سياسيّ تعاهَدَ فيه باللغة الرّوْمَنيّة (Le roman) اثنانِ من أبناءِ لويس (Louis) بن شارلمان (Charlemagne) ضدّ أخٍ لهما . لكنّ هذا النصّ لم يظهرْ مكتوبًا إلاّ حوالي سنة 1000 م في كتابٍ حولَ أخبَار أبناءِ لويس بن شارلمان . ورغْم تأخُّر ظهورِ هذا النصِّ مكتوبًا فقد عدّه مؤلفُو معجم روبار التاريخي "شَهادةَ ميلادِ اللغة الفرنسيّة" (Acte de naissance du français) (6) . وهذا النصّ يُشبهُ في هُويّته التاريخيّة كما يُلاحَظُ النصوصَ العربيّة الجاهليّة التي دُوِّنتْ في القَرْن الثاني الهجري ، أي في القرن الثامن الميلاديّ . وهو – مثلَ نُصوصِنا الجاهليّة – لم "يُؤلّف" إلا بعد أن شاعَت الوحداتُ المعجميّة التي اشتمل عليها بين أفرادِ

---

(4) نميّز بين "الوحدة المعجميّة" و"المفردة". فالمفردةُ هي الوحدة المعجميّة البسيطة ، أي التي لم تؤلف مع غيرها فتكون مركّبة – إذا كونتها مفردتان – أو معقدة إذا كونتها ثلاث مفردات أو أكثر. وإذن فإن الوحدة المعجميّة أعمّ وأشملُ من المفردة لأنها تكون بسيطة وتكون مركبة وتكون معقدة ، كما تكونُ عبارةً – ينظر حول هذه المفاهيم إبراهيم بن مراد : الوحدة المعجميّة بين الإفراد والتضامّ والتلازم ، قدّمَ في ندوة "التلازم اللفظي والتضام" (ندوة جمعيّة المعجميّة العربيّة بتونس الوطنيّة الثالثة ، 2 – 3 ماي 2003) [ونُشرَ في مجلة "الدراسات المعجمية" ، (الرباط) ، 5 (2006) ، ص ص 23 – 31] .

(5) Alain Rey (dir) : Dictionnaire historique de la langue française. Dictionnaires LE ROBERT, Paris, 1992 (2vols).

(6) المرجع نفسه ، 829/1 (السطر 4 من العمود 2).

الجماعة اللغويّة التي استعملتْها واستقرّتْ معانيها التي يُعَبَّرُ بها عنها . ولا شكّ أنّ ذلك الشيوعَ وهذا الاستقرارَ لم يحصُلاَ إلاّ بعد أن استعْمَلتْ أجيالٌ سَابقةٌ لسنة 842 م تلك الوحدات المعجميّة ، فالرُّومَنيّة التي ستتولّد عنها "الفرنسيّة القديمة" "l'ancien français" ، في القرْن التّاسع الميلاديّ ، قد تولدّتْ بدورها عن اللّغة اللاتينيّة منذُ القرن الخامسِ الميلاديّ (7) . وإذْ إنّ المتكلّمينَ الأوّلينَ الذين استعْملُوا تلك الوحدات المعجميّة قد طُوِيَتْ أزْمانهمْ فإن مؤرّخَ وَحَدات المعْجم لا يَستطيعُ – ما لم يكنْ قد عَاصرَهم فنقلَ عنْهم – أن يُؤرّخَ للوحدات المعجميّة التي استعملوها إلا باعتماد النّصوص التي ظهرَت فيها . فتلك النّصوص ذاتُ قيمة أثريّة حَقيقيّة لأنها بالنّسبة إلى مؤرّخ وَحدات المعجم كالمعالم الأثريّة الحقيقيّة بالنسبة إلى عالم الآثار . والمستَفادُ ممّا ذكرْنا أنّ التأريخَ للوحداتِ المعجميّة وللمَعاني ليْس تأريخًا لأوّل ظهورٍ لها في الاستعمالِ ، بل هُو تأريخٌ لأولِ ظهورٍ لها في نصٍّ من النّصوص المكتوبَة .

2 – العربيّة والتّدوين :

وتاريخُ اللغة العربيّة من حيْثُ التدوينُ في النصوص يَنْقسم إلى ثلاث مَرَاحل كبْرى : الأولى – بدْءًا بأحْدَثها وانتهاءً بأقْدَمها – معلُومةُ النّصوص قابلةٌ للتأريخ لأنها مُدَوَّنةٌ تدوينًا حقيقيًّا في نصوص أصليّة ، ونعْني بها المرحَلةَ المتأخّرة التي تَبدأُ ببدايات القرن السّابع الميلاديّ بظهورِ الإسلام ونزولِ القرآنِ الكريمِ خَاصّة ؛ والثّانيةُ هي السّابقة للأولى مُبَاشَرةً ، وهي التي اشتهرتْ تسميتُها بالفترة الجاهليّة ، وهذه المرحلةُ ليستْ بالمعلومَة تمامًا وليستْ بالمجهولة تمامًا كما سنبيّنُ ، وهي تُغطّي فيما نَرى نحوَ عشرَة قرونٍ لأنها تمتدُّ من حواليْ سنة 400 ق.م إلى بدايَات القرنِ السّابع الميلاديّ ، بظهُور الإسلام ؛ وأمّا المرحلةُ الثالثَة فمَجْهولةٌ تمامًا إذ لم تَصلنا عنْها نصوصٌ بعدُ حسب علمنا ، وهي كلّ الزّمَنِ السّابقِ للمائة الرّابعة قبلَ الميلاد .

والمرحلةُ التي تعْنينَا في بحثنا هذا هي الثّانيَة . والنّصوصُ التي تَنْتَمي إليها صنفَان : الأولُ تمثّله النقُوشُ المكتشَفةُ في شمَال الجزيرةِ العربيّة ، وخاصّةً في الحجازِ ونجْد ، وهاتان

(7) ينظر في المرجع نفسه ما كتب عن نشأة اللغة الفرنسيّة ، 829/1 – 830 ، وعن نشأة اللغات الرّومَنيّة ، 1824/2 – 1825 .

المنطقتان كما نعلَمُ هما مهْدُ العربيّة التي وُصِفَتْ في المرْحلة المتأخّرة التي اعتبرْناها الأولى وكانتْ الأساسَ الذي أقيمَ عليْه علمُ العربيّة ، ونحنُ نجدُ أثرَ ذلك واضحًا في كتاب سيبويْه الذي كانَ يفَضّلُ عربيّة أهلِ الحجازِ وعربيّة بني تميم – وهم أهمُّ سُكّان نجْد – ويعتبرُهما مُمَثّلَتيْنِ للغة المرْضيّة التي يُحْتَجُّ بها (8) . والنقُوشُ التي وصلتنا من المنطقتين المذكورتيْن مشتملة على نصُوص من اللهجات الثمُوديّة واللحيانيّة والصفَويّة ، نسبةً إلى منطقَة الصفاة (9) ؛ والمدوّنة المعجميّة التي تَشتملُ عليها تلك النقُوشُ مُهمّة جدًّا لتأريخ الوَحَدات المعجميّة في اللغة المستَعمَلة في هذه المرْحلة الثّانية . وأمّا الصنفُ الثاني من النصوصِ فتُمثلُهُ النّصُوصُ الشعْريّة .

والشعرُ الجاهليّ حقيقةٌ لا يَرقَى إليها الشّكّ . ولقد عُنِيَ القُدماءُ بتدْوين أسماءِ الشعراءِ الجاهليّين وبجمْع أشعارِهم واختيَارِ ما رَاقَ لهم منها في مجاميعَ . ومن أقدم القائماتِ التي وُضعتْ بأسمائهم قائمةُ اليَعْقُوبي في تاريخه (10) ، وفيها أربعةٌ وسبعونَ شاعرًا من غير المخَضْرمين ؛ وأمّا الجمْع فقد عُنِيَ به علماءُ القرنين الثّاني والثّالث الهجريّيْن فوضعُوا دواوينَ الشعراء ، وكان جمعُهم في الغالب كالتّحْقيقِ في العصر الحديث لأنهم أثناءَ الجمع يقارنُون بين الرّوايات ويُثْبتُون ما يَرَوْنَه أفضلَ القراءات . وقد كانت أعمَالُهم متفاوتة في الجودة . ويبدو أنّ أبَا سَعيدٍ السّكّري (ت. 275 هـ/888 م) كان أَحْسَنُهُم عَمَلاً (11) ، وقد جمع بمفرده ثمانيةً وأربعين ديوانًا لشعراءَ جاهليّين وإسلاميّين . وأمّا المجاميعُ المختارةُ فكثيرةٌ ، ومن أقدمِها وأشهرِها "المفضّليّاتُ" التي ألّفها المفضّل الضّبّيّ (ت. حوالي

---

(8) ينظر : سيبويه : الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1966 – 1977 ، 122/1 ، 182 ، 304 ، 396 ؛ 413/2 ؛ 98/3 ، 271 ، 278 ؛ 473/4 ... إلخ

(9) ينظر حول اللهجات الثلاث جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزء السابع : القسم اللغوي ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1957، ص ص 188 – 325 ؛ رمزي بعلبكي : الكتابة العربيّة والساميّة، بيروت، 1981، ص ص 105 – 109 .

(10) اليعقوبي : التاريخ، 304/1 – 313 .

(11) تنظر شهادة ابن النديم فيه ، فقد قال (الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران ، 1971، ص 178) : "والذي عمل من العلماء أشعارَ الشعراء فجوّد وأحسن ، أبو سعيد السكري" ؛ ولم يكتف بجمع دواوين الشعراء، بل جمع أشعارَ القبائل أيضا ، وقد ذكر ابنُ النديم (الفهرست، ص 180) أسماء القبائل التي جمع شعرها وعددها أربعٌ وعشرون .

178هـ/793م) ، و"الأصْمَعِيّاتُ" التي ألّفها أبو سعيد عبد الملك الأصْمعي (ت. 214 هـ/829 م) ، إضافة إلى كتبٍ كثيرة تحملُ عنوانَ "طبقات الشعراء" و"الشّعر والشعراء" .

3 – في قضايا التأريخ للشّعْر :

لَمْ يُوَازِ الاهتمامَ الكبيرَ بالإحصاءِ والجمْع اهتمامٌ مثلُه بالتأريخ . فإن الغالبَ على علمَاءِ مرْحلةِ الجمْع والتّدوينِ ، في القرنيْن الثاني والثالث الهجريّين خاصّة ،كان الاكتفاءَ بتَصنيفِ الشُّعراءِ إلى جاهليِّين ومخضرَمين وإسلاميِّين . و لم يكن التأريخُ الدقيقُ للشعراءِ من غايتهم مثلمَا كان جَمْعُ شعرِهم وتَدْوِينُهُ . وهم بذلك قد وفّرُوا مادّة جيّدة للاستشهاد بالشعر في المعْجم اللغويّ عامّة ، لكنّ المادّة التي وفّروها ليستْ مُهَيَّأَةً للاستشهادِ بها في تأليف المعجَم التّاريخي . وإذن فإنّ الشعرَ الجاهليّ يثيرُ جملة من القضايَا لمؤلّف مُعْجم اللغة العربيّة التاريخيّ ، ونريد أن نجْمل تلك القضايا في الخمس التّالية :

3 – 1 . تأريخُ النّصوص :

نُسَمّي القضيّة الأولى "**تأريخَ النصُوص**" . فإنّ النصّ يمكن أن يؤرّخَ – عامّة – بجمْلة من الوسائل ، أهمّها ثلاثٌ هي : (1) تأريخُ كتابته تأريخًا صريحًا ، إمّا بذكر الكاتب تاريخَ انتهائه من التأليف ، وإمّا بإشارته في النصّ ذاته إلى شواهدَ تاريخيّة يمكنُ أن يُستَدلّ بها على تاريخ كتابته ؛ (2) ذكرُ ظروفٍ معيّنة أحاطتْ بكتابة النصّ مثل تأليفه لشخصٍ بعينه أو لتخليدِ حدَثٍ مّا سياسيّ أو عَسكريٍّ أو اجتماعيّ ؛ (3) الاستشهادُ به أو النقلُ عنه في نصوصٍ لاحقة تؤرّخُ له .

ويمكنُ تطبيقُ الوسائل الثلاث المذكورة في تأريخ الكثيرِ من النصُوصِ الإسلاميّة . فمن أمثلة التّنبيه إلى تاريخ التأليف ذكرُ أبي عُبيْد البكري (ت. 487 هـ/1094م) أنّه ألّفَ كتابه "المسالك والممالك" سنة 460 هـ/1068م ([12]) ، وذكرُ أبي العبّاس التّيفاشي (ت. 651 هـ/1253م) أنه ألّف كتابَه "أزهار الأفكار في جواهر الأحْجار" سنة 640 هـ/1242م

(12) ينظر : أبو عبيد البكري : المسالك والممالك ، تحقيق ادريان فان ليوفن (A. P. van Leeuwen) واندري فيري (A. Ferre) ، تونس ، 1992، 865/2 (ف 1444) و902/2 (ف 1512) .

([13]) ؛ وأمّا تبيّنُ كتابة النصّ من الظروف التي أحاطتْ بتأليفه فكثيرةٌ أمثلتُه . منها تأليفُ أبي عُثمان الجاحظ جملةً من رسائله لبعض رجالات عصره ، من السّاسة خاصّة ، مثلَ تأليفِه رسائلَه "المعَاش والمعاد" و"في نفْي التّشبيه" و"في النّابتة" للقاضي أبي الوليد محمّد بن أحمد بن أبي دُوَاد الذي كان نائبًا لأبيه في القضاءِ من سنة 218 هـ/833 م إلى سنة 233 هـ/847 م، وقد خَلَفَ في هذه السنة أباه في القضاءِ حتّى237 هـ/851 م ؛ وتأليفِه رسالة "في الجدّ والهزْل" لمحمد بن عبد الملك الزيّات الذي كان من سنة 221 هـ/836 م إلى 233 هـ/847 م وزيرًا للمعتصم ثم للواثق ثم للمتوكّل ؛ وتأليفِه رسالة "مناقب الترك" للفتح بن خَاقان الذي شغل خططًا سياسيّة كثيرة للمتوكّل من سنة 232 هـ/846 م إلى سنة 247 هـ/861 م ([14]) ؛ ومنها أيضا تأليفُ أبي حيّان التوحيدي (ت. 414 هـ/1023 م) كتابَ "الإمتاع والمؤانسة" لأبي الوفاء المهندس في زمن وزارة أبي عبد الله بن سعدان بين 373 هـ/983 م و375هـ/985 م بعد أن قدّم مادّتَه في مسامَرات خلال ليالٍ للوزير ([15]) ؛ وأمّا الاستشهادُ بالنصّ في نصوصٍ لاحقة تؤرّخُ له فأهمّ مظاهرِه تدوينُ النّصوص في كتبِ التاريخ ، وخاصة في الكتبِ المصنّفة بحسبِ السنواتِ ومَا جَرى فيها من الأحداث . فإنّ من هذه الكتب ما يَشتملُ على وثائقَ أصليّة مؤرَّخة مثل الرسائلِ والخطب والعهودِ والوصايَا . ونجدُ من هذا الصنف من النّصوص عددًا كبيرًا في كتاب تاريخ الرسل والملوك لابن جَرير الطبري (ت . 310 هـ/922م). ومن أمثلة الرسائل رسائلُ الرسول (ص) إلى هرقل ([16]) والنجاشيّ ([17]) وكِسرى ([18]) سنة (6 هـ/ 627 م) ؛ ورسالتُهُ إلى ملوك حِمْيَرَ سنة 9 هـ/630 م ([19]) ،

---

(13) أبو العبّاس أحمد التيفاشي : أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمد بسيوني خفاجي ، القاهرة ، 1977، ص 92 .

(14) تنظر الرسائل المذكورة في الجزء الأول من "رسائل الجاحظ" (يراجع التعليق (2)) .

(15) تنظر إشارة التوحيدي إلى أن ابن سعدان كان في الوزارة عندما استجاب لطلب أبي الوفاء المهندس في تأليفه كتابه : الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، 1939؛ – 1944 ، 5/1، 228/3 و229 .

(16) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق جماعة من المستشرقين بإشراف دي خويه (M. J. De Goeje)، ط.2، بريل (E. J. Brill)، ليدن، 1964، (مصورة عن الطبعة الأولى الصادرة بين 1879 – 1901)، 3/1، ص 1565 .

(17) المرجع نفسه ، 3/1 ، ص 1569 .

(18) المرجع نفسه ، 3/1 ، ص 1571 .

(19) المرجع نفسه ، 1 /4 ، ص ص 1881؛ – 1884 .

ورسالتا عُمر بن الخطّاب سنة 14 هـ/635 م إلى أبي عُبيدة بن الجرّاح لتوليته أمرَ الجند مكانَ خالد بن الوليد [20] ، وإلى سعْد بن أبي وقاص في فتْح القادسيّة [21] ؛ ومن الخُطب خطبةُ الرّسول بالمدينة في أوّل جمعة جمعَها سنة 1 هـ/622 م [22] ، وخطبةُ أبي بكر الصدّيق لمّا وَلِيَ الخلافةَ سنة 11 هـ/632 م [23] ، وخطبةُ زياد ابن أبيه لما ولِيَ البَصرةَ سنة 45هـ/665 م [24] ؛ ومن العُهود عهدُ الرسول (ص) بالولاية إلى عمْرو بن حزم على بني الحارث بن كعْب سنة 10 هـ/631 م [25] ، وعهدُ أبي بكر إلى الأمراء الذين ولاّهم سنة 11هـ/632 م [26] ، وعهد معاوية بن أبي سفيان إلى ابنه يزيد بالبيعة سنة 60 هـ/680 م [27] ، والعهد الذي تمّ بين ابني الرشيد الأمين والمأمون حول البيعة بالخلافة سنة 186 هـ/802 م [28] .. إلخ .

ولكنّ الوسائل التي ذكرْنا يَصْعُبُ تطبيقُها في تأريخ النّصوص الشعريّة الجاهليّة . فإنّ الوسيلةَ الأولى – أي التأريخَ الصريحَ – لم تُطبّق البتّة فيما نعلَم ؛ والوسيلَةُ الثالثة – أي ذكرُ الشواهد والنُّقول عنْها – غَيْرُ مُجْدية لأنّ الاعتمادَ على النصوص الجاهليّة كان متأخّرًا جدًّا عن عصرِ تأليفها، فلقد أصبحت شواهدَ معتمدَة في القرنِ الثّاني الهجريّ ، في كتبِ اللغة خاصّة ؛ وأمّا الوسيلة الثانية – أي الظروفُ المحيطةُ بالنصّ – فهي الوحيدةُ القابلة للتطبيق ، ولكنّ تطبيقها محدودٌ أيضا ، فإنّنا نَستطيعُ أن نؤرِّخَ لبَعض القصائدِ التي قالها شعراءُ قد عَاصرُوا مُلوكًا وكانوا أطرافًا في بعض الأحداث ، مثل قصائد النابغة الذّبياني في الغسّاسنة والمناذرة ، والقصائدِ التي قالها عَديّ بن زَيْدٍ في السّجن ، أو القصائدِ التي قيلت في أيّامٍ معلومة من أيّام العرب ؛ ولكنّ هذه الوسيلة قد توقِعُ في الخطإ لأنّ من الظروفِ التي تُذكَرُ لقول شعر مّا ، ما قد يكونُ من اختلاقِ الرُّواة وابتداعِ القُصّاص ، وهذا ليس قليلاً في الحديث عن أيّام العربِ مثلاً .

---

(20) المرجع نفسه ، 1 /4 ، ص ص 2144 – 2145 .
(21) المرجع نفسه ، 1 /4 ، ص ص 2227 – 2228 .
(22) المرجع نفسه ، 1 /3 ، ص ص 1257 – 1258.
(23) المرجع نفسه ، 1 /4 ، ص ص 1845 – 1847 .
(24) المرجع نفسه ، 1/2، ص ص 73 – 76 .
(25) المرجع نفسه ، 1 /4 ، ص ص 1727 – 1729 .
(26) المرجع نفسه ، 1 /4 ، ص ص 1884 – 1885 .
(27) المرجع نفسه ، 7/2 ، ص ص 196 – 197 .
(28) المرجع نفسه ، 2/3 ، ص ص 655 – 660 .

3 – 2 . في وجود الشعراء الجاهليّين التّاريخيّ :

والقضيّة الثانية نسميّها "**وجودَ الشعراء الجاهليين التاريخي**". وهي مُرتبطة بقضيّة أخَصّ منها هي الشّكّ في الشّعر الجاهليّ . وهذه قضيّة معروفةٌ معلومة يمكنُ أنْ نُقَسِّمَ مواقفُ الباحثين والمعنيّين بتاريخ النّصوص الجاهليّة منها إلى ثلاثة : موقفٍ مُتطرّفٍ يَرْفضُ جُلّ الشعرِ الجاهليّ ويَراهُ من اختلاقِ الرّواة وابتداعهم لأسبابٍ قبليّة وسياسيّة . والأخذُ بهذا الموقفِ مُؤَدٍّ إلى اعتبارِ الشعر الجاهليّ الذي وَصَلَنَا لا يصفُ لغةَ الجاهليين ولا يَصْلُحُ – لذلك – لأنْ يُعتَمَدَ في التأريخ للوحداتِ المعجميّة في اللغة العربيّة ولمعانيها ؛ والمَوْقفُ الثاني موقفٌ متطرّفٌ أيضًا ، لأنه يَقْبَلُ جُلّ ما وصلنا من الشعرِ الجاهليّ ويرى فيه وثيقة لا تقبَل الدّحضَ أو النّقض ، وأصحابُ هذا الموقف لا تعنيهم تاريخيّةُ الشعراء أو تاريخيّةُ النصُوص التي تُنْسَبُ إليهم بقدر مَا تعنيهم النصوصُ ذاتُها من حيث هي نصوصٌ أدبيّة ؛ والموقفُ الثالث وسطٌ يرى في الشعرِ الجاهليّ حقيقة تاريخيّة لكن ينبغي للباحثِ ألاّ يُسلِّم تسليمًا مطلقا بصحّة شيءٍ غيرِ قليل ممّا وصلنا منه .

ولا شكّ أن النَّحْل ظاهرةٌ قديمة معروفَة . ومن الأدلّة على صحّة وجودِها تقويلُ القدماءِ آدمَ شعرًا بالعربيّة في رثاءِ ابنه هابيل لما قتله أخوه قابيل ([29]) ، وكأنّ اللغة العربيّة قديمةٌ قِدَمَ آدَمَ ! وقد نبّه القدماءُ أنفسُهم إلى هذه الظاهرة وانتقدُوها ودعَوْا إلى الاحتياط منها . ففي الشعر – حسب عبارة ابن سلاّم الجُمحي (ت. 231 هـ/845 م) – "مصنُوعٌ مُفْتَعَلٌ مَوْضُوعٌ كثيرٌ لا خيرَ فيه" ([30]) ؛ وقد ذكرَ ابنُ سلاّم بعض أسبابِ نَحْلِ الشعر : "فلمّا راجَعَت العَرَبُ روايةَ الشعرِ وذِكْرِ أيّامها ومآثرِها ، استقلّ بعضُ العشائرِ شعرَ

---

(29) ينظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، 1/1، ص ص 145 – 146 (وقد أسند الرواية إلى علي بن أبي طالب) ؛ البكري : المسالك والممالك 68/1 (ف 47 ، وهو يُسْنِد الخبر إلى عليّ أيضًا) ؛ أبو العلاء المعري : رسالة الغفران ، تحقيق عائشة عبد الرحمان ، ط 8 ، القاهرة ، [1990]، ص ص 360 – 364 ، وقد سخر أبو العلاء من نسبة الشعر إلى آدم : فقد أنطقَ آدمَ – وقد حاوَرَه ابن القارح في مسألة شعره – بقوله : أعْزِزْ عَلَيَّ بكُمْ معشرَ أبْنِيَّ ! إنّكم في الضلالة مُتَهَوْكُونَ ! آلَيْتُ ما نطقتُ هذا النظيمَ ولا نُطِقَ في عصري، وإنما نظمَهُ بعض القارغين . فلا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله ! كَذَبْتُم على خَالِقكم وربّكم ، ثم على آدمَ أبيكُمْ ، ثم على حَوّاءَ أمّكُمْ ، وكَذَبَ بعضكم على بعض ، ومآلكم في ذلك إلى الأرْض" (ص 364) .

(30) محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، ط.2، القاهرة، 1974 (جزءان) ، 1 /4 .

شعرائهم وما ذهبَ من ذكْر وقائعهم . وكان قومٌ قلّت وقائعُهم وأشعارُهم فأرادوا أن يَلْحَقُوا بمن له الوقائعُ والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم .ثم كانت الرواةُ بعدُ فزادوا في الأشعار التي قيلت . وليس يُشْكِلُ على أهْل العلْم زيادةُ الرّواةِ ولا مَا وَضعُوا ، ولا مَا وَضَع المولّدُون ، وإنّما عَضَلَ بهم أن يَقول الرّجلُ من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجلُ الذي ليس من ولدهم ، فيُشكِلَ ذلك بَعض الإشكال" ([31]) .

وقد ذكر القدماءُ من مُتقوّلي الشّعْر ومُفْسِديه جماعةً ، نريدُ أن نقفَ على خبر اثنين منهم يمسّان قضيّةَ النحْل في الشعر أكثرَ من غيرهما، وناهما — لذلك — من النّقْد والتجْريح ما لم نرَه نَالَ أحدًا غيرَهما من الرّوَاة . الأولُ هو حمّاد الرّاويَة (ت . 156 هـ/772 م)، وقد كان مولًى ، فإنّ والدَه فارسيٌّ دَيْلَميّ قد عاشَ عَبْدًا حوالي خمسين سنةً ثم أُعْتِق . وقد اتّهمَ القدماءُ حَمّادًا في عربيّته وفي أمانته . فهو — في نظر يونس بن حبيب (ت. 182 هـ/798 م) ، حسب ما رواه عنه ابنُ سلاّم ([32]) — "كان يَكْذِبُ وَيَلْحَنُ ويَكْسِرُ"، وكان حسب ابن سلاّم نفسه "غير موثوقٍ به . وكان ينحَل شعرَ الرجُل غَيْرَه ، وينحله غيرَ شعره، ويزيدُ في الأشعار" ([33]) .

والرّاويةُ الثاني هو خلَفٌ الأحمر . وقد كان خلف (ت. 180هـ/796 م) مثل حمّاد مولًى من أصل فارسيّ ، من السُّغْد ، وكان هو نفسُه سَبيًّا ؛ وقد تحقّق له حسب المصادر القديمة ما لم يتحقّق لحمّاد من المعرفة بالشّعر والشّعراء . فلم "يُرَ أحَدٌ أعْلَمَ بالشعر والشعراء منه" ([34]) ، وكان هو نفسُهُ شاعرًا ، قادرا على قول "القصائدِ الغُرّ"، لكنّه كان يقولها "ويدّخِلُها في دواوينِ الشعراء" ([35]) .

---

(31) المرجع نفسه ، 46/1 – 47 .
(32) المرجع نفسه، 49/1 .
(33) المرجع نفسه، 48/1 .
(34) هو رأي المرزباني . ينظر : الحافظ اليغموري : نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء للمرزباني ، تحقيق رودلف زلهايم (Rudolf Sellheim) ، فياسبادن ، 1964 ، ص 72 .
(35) أبو بكر الزبيدي : طبقات النحويّين واللغويّين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط. 2 ، القاهرة [1984] ، ص 162 (نقلا عن أبي علي القالي) . وينظر أيضا رأي ابن النديم فيه : الفهرست ، ص 55 .

ولم يشذّ المحدّثون عن القدماءِ في موقفهم من الرّجلين [36] . وقد أخَذَ بطَهَ حُسيْن الحَمَاسُ للشّكّ في صِحّة ما رُوِيَ من الشّعر الجاهليّ مأخذًا جَعَله يُسْرِفُ في الحكْم عليْهما بالفسَاد إسرافًا . فقد كان "كِلاَ الرجليْن مُسْرِفًا على نفْسه ، ليْس له حظٌ من دِينٍ ولا خُلُقٍ ولا احْتشامٍ ولا وَقار . وكان كِلاَ الرجلين سكّيرًا فَاسقًا مُستهترًا بالخمْر والفسْق ، وكان كِلاَ الرجلين صاحبَ شكٍّ ودعابة ومجُون (...) وأهلُ الكُوفة مجمعُون على أن أستاذَهُم في الرّواية حمّاد ، عنه أخذُوا ما أخذُوا من شعرِ العرب ؛ وأهلُ البصْرة مُجمعُون على أنّ أستاذَهُم في الرّواية خَلف ، عنه أخَذُوا ما أخَذُوا من شعرِ العرب أيضا ، وأهلُ البَصرة مُجْمعون على تجريح الرجلين في دينهما وخُلُقهما ومُروءتهما ؛ وهمْ مجْمعُون على أنهما لم يكونا يحفظان الشعرَ ويُحسنان روايتَه ليس غير ، وإنّما كانا شاعريْن مُجيديْن يصِلاَن من التقليد والمهارة فيه إلى حيث لا يستطيعُ أحدٌ أن يميّز بين ما يرويان وما يَنْحَلان" [37] .

وقد قرأنا الأخبارَ التي كتبها القدماءُ عن الرجلين فلم نخرج منها بما خرج به طه حسين من رأي ؛ فقد وجدنا في ما كُتِبَ عنهما آراءً متضاربة متناقضة تدعُو إلى الشكّ في ما قيل فيها في الرجُليْن . فقد كان حمّاد مولىً ، ابنَ سبيٍّ قد عاش عبدًا خمسين سنة ، وتعلّمَ العربيّة تعلّما فلم يُجدْها، ولذلك كان "لُحَنَةً لَحّانًا" [38] لا يجد حرجًا في الحديث بالعاميّة في مجلس الخليفة [39] ، ولكنّه كان — رغم ذلك كلّه — ذَا قُدرة عَجيبة على ارتجال الشعر الجيّد [40] وعلى حفظ الكثيرِ منه — فقد كان يحفظ مائة قصيدة مُطَوَّلَة ، سوى المقطّعات ، على كلّ حَرفٍ من حروف المعجم ! [41] ، بل كان يروي "سبعمائة قصيدةٍ أولُ كُلّ واحدة منها بَائتْ سُعَاد" ! [42] — وعلى تفسير غَرِيبِه إذ كان "أعلمَ الناس بكلام العَرب" [43] ؛ ثم إنه

---

(36) ينظر مثلا : طه حسين : في الأدب الجاهلي، ط. دار المعارف بمصر، القاهرة (د.ت). ص ص 169 – 171 ؛ R. Blachère : Histoire de la littérature arabe, des origines à la fin du XVe siècle de J. C. Maisonneuve, Paris, 1952 – 1966 (3 vols), 1/103 – 107 .

(37) طه حسين : في الأدب الجاهلي ، ص 169 .

(38) ينظر أبو الفرج الأصفهاني : كتاب الأغاني ، ط. بولاق ، 1285 هـ (20 جزءا) ، 165/5 .

(39) المرجع نفسه ، 165/5 .

(40) المرجع نفسه ، 174/5 .

(41) المرجع نفسه ، 164/5 و174/5 .

(42) المرجع نفسه ، 173/5 .

كان "يكذبُ" [44] و"غير مَوثوق به" [45] ، لكنَّ من ثقاتِ العلماء مثل أبي عمْرو بن العلاء (ت. 154 هـ/770 م) مَن كان "يُقَدِّمُهُ على نفسِه" [46] .

وما قيل عن اضطرابِ أخبارِ حمّاد يُقال عن اضطراب أخبارِ خلف الأحمر أيضًا . فلقد دخلَ بلادَ العربِ سبيًّا وتعلّم العربيّة تعلّمًا ، لكنه سَرْعَان ما خَبِرَ الشعرَ العربيّ بأساليبه وغريب لغته، حتّى "لم يُرَ أحدٌ أعلمَ بالشعر والشعراءِ منه" [47] ، وكان هو نفسُه شاعرًا مُجيدا "يقول القصائدَ الغُرّ" [48] ، وكان لعميقِ خبرته بالشعر العربيّ من أقدرِ الناس على التمييزِ بين الشّعر المصنوع الموضوع والشّعر الصحيح النّسبة ، فقد "كان أَفْرَسَ النّاس بِبَيْتِ شِعْرٍ" [49] ، أي أكثرَهم فراسةً وبصيرةً بالموضوع والصحيح من الشعر [50] . ثم إنّ رأيَ ابن سلاّم الجمحيّ فيه مخالفٌ تمامًا لرأيه في حمّاد، فلقد كان يرى فيه رَاوِيَةً صادقًا ، وهو أصدقُ الناس "لِسَانًا ، وكنّا لا نبالي إذا أخذْنا عنه خبرًا أو أنشَدَنا شعرًا أن لا نسْمعهُ من صاحبه" [51] ، ومع هذا الصّدقِ كلّه وهذه الثقة بروايته فقد نُسِبَ إليه أنّه كان لا يَرى غَضاضةً في أنْ يُصلحَ الراوي شعرَ مَن يروي شعره [52] ، وكان من "القَصائد الغرّ" التي يقولها ما يُدْخله "في دواوين الشعراء" [53] ، بل كان يَضَعُ الشعر على القبائل أيضًا "عبثا منه" [54] . ويُلاحَظُ ما في الآراء التي ذكرنا من الاضطراب والتناقض اللذين يدعوان إلى الشكّ فيها ، ومما يزيد هذا الشكّ قوّة أن الشعرَ الذي بقي منسوبًا إليه [55] لا يدُلّ على أيّ إجادة ، فإنّ فيه من الصنعة والتّكلّفِ مَا يجْعَلُنا نعتَقِدُ أنّه لم يكُنْ قادرًا على قول "القَصائدِ الغُرّ" .

---

(43) المرجع نفسه ، 165/5 .
(44) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، 49/1 .
(45) المرجع نفسه ، 48/1 .
(46) الأصفهاني : الأغاني ، 165/5 .
(47) يراجع التعليق (34) .
(48) يراجع التعليق (35) .
(49) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، 23/1 .
(50) المرجع نفسه ، 7/1 .
(51) المرجع نفسه ، 23/1 .
(52) الحافظ اليغموري : نور القبس ، ص 73 .
(53) يراجع التعليق (35) .
(54) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص 163 .
(55) تنظر نُتَفٌ من شعره في : الحافظ اليغموري : نور القبس ، ص ص 74 – 79

وإذن فإنّ ما قيلَ عن الرجليْن مَدْعَاةٌ إلى الشّكّ وإعادة النظر . ولكنّ ذلك لا ينفي وجُودَ النّحْل . ولكنّه كان – فيما نرى – ظاهرةً قابلة للدراسة والتمحيص ، وهي – لذلك– لا تنتهي بنا إلى الشّكّ المطلق في الشّعر الجاهليّ والشّعراءِ الجاهليّين . فقد كان للشعراءِ الجاهليّين وُجُودٌ تاريخيّ حقيقيٌّ ، لكنّ ما يُنْسَبُ إليهم من شِعْرٍ ليس دائما من قولهم إمّا لأنّه منْحول إليهم وإمّا لأنه مُحَرَّفٌ بسبب التّناقُل الشفَويّ الذي سنذكرهُ في القضيّة الرابعة ، أو بسبَب تدَخّل الرواة وإصْلاحِهم له .

وإذن فإنّ الشعرَ الجاهليّ حقيقة تاريخيّة . لكنْ ينبغي للباحث ألاّ يُسَلّمَ تسليمًا مطلقًا بصحّة نصوصٍ كثيرة قد وصلتنا منه . وقد أخذَ بهذا الموقف باحثُون جادّون لعلّ أهمّهُم أثرًا في دراسة القضيّة المستشرقُ الفرنسيّ رجيس بلاشير (Régis Blachère) في كتابه "تاريخُ الأدبِ العربيّ" (Histoire de la littérature arabe) ([56]) . وهذا الموقفُ الوسطُ كانَ موقفَ فريقِ البحث في مشروع "**مُدوّنة المعجَم العربيّ التّاريخيّ**". ولقد قضَّى الفريقُ السنةَ الأولى من حياة المشْروع – أي سنة 1997 – في دراسة وجُودِ الشعراء وتحديدِ تواريخِ وَفَيَاتِهم ، إمّا تحْديدًا دقيقًا وإمّا تحديدًا تقريبيًّا ، والشعراءُ الذين أقرّ وجودَهم وحدّدَ تاريخَ وَفاتِهم همُ الذين اعْتُمِدُوا في استقْراءِ النّصوص واسْتخْراجِ مُدوّنة الشّعرِ الجاهليّ المعجَميّة .

3 – 3 . في أوّليّات الشّعْر الجاهليّ :

والقضيّة الثّالثة نُسمّيها "**أوليّات الشّعر الجاهلي**" . فلقد رأينا أن "النّصوصَ النّقُوشيّة" ترْجعُ إلى المائة الخامسة قبل الميلاد . وأمّا النّصوصُ الشعريّة فمختلَفٌ في ظهورها ؛ والرأيُ السائدُ منذ أواسطِ القرنِ الثّاني الهجريّ على الأقلّ هو أنّ الشّعرَ حديثُ الظهور ، وجُلّ العلماءِ القُدَامَى يعْتقدون أنّ أوّلَ الشّعراءِ في العربيّة هو امرؤُ القيس بن حُجْر ، ومنهم من يضيفُ إليه مُهلْهل بن رَبيعة ؛ وفي ذلك يقولُ الجاحظُ : "وأمّا الشعرُ فحديثُ الميلاد ، صغيرُ السنّ ، أولُ من نَهَجَ سبيلَه ، وسَهّلَ الطريقَ إليه امرؤُ القيس بن حُجْر ، ومُهَلْهَلُ بن ربيعة . وكُتُبُ أرسطوطاليسَ ، ومعلمِه أفلاطونَ ثم بطليمُوسَ وديمقراطيسَ وفلانٍ وفلان ،

---

(56) يراجع التعليق (36) .

قبلَ بدءِ الشّعر بالدهور قبل الدهور والأحقابِ قبلَ الأحقابِ (...). فإذا استظهرْنا الشعرَ وجدْنا له – إلى أنْ جاءَ اللهُ بالإسلام – خمسينَ ومائة سنة . وإذا اسْتظهرْنا بغاية الاستظهارِ فمائتَيْ سنة" (57) . فلقد ظهرت الفلسفةُ عند اليونان حسبَ أبي عثْمان الجاحظ إذن قبلَ أن يظهرَ الشعرُ عندَ العرب بدهورٍ تلتْها دهورٌ وأحقابٍ تلتْها أحقاب ، فلم يعْرف العربُ الشعرَ قبل الميلاد ، و لم يعرفُوه بعده إلا في القرْن الخامسِ الذي ظهر فيه امرؤُ القيس ومهلهل بن ربيعة ، وهذان قد توُفّيَا في النّصف الأوّلِ من القرنِ السّادس الميلادي . وقد أقرّ بهذا الرأي جماعةٌ من القدماءِ ، نذكرُ منهم اليعقوبي وابنَ النّديم . فقد ذكرَ الأوّلُ في تاريخه (58) قائمةً الشعراءِ الجاهليين وقَدَّمَ عليهم جميعًا امْرأ القيْس ؛ وأورَد الثّاني في فهْرسته أسماءَ الشعراء الذين عُملت لهم دواوينُ وقدّم عليهم جميعًا امرأ القيس أيضا (59) . على أنّ للقدماءَ رأيًا آخر عبَّر عنه عُمَرُ بن شَبَّه – حسب ما رواهُ عنه السيوطي ، من كتابٍ له عنوانه "طبقاتُ الشعراء" – هو قولُه : "للشعرِ والشعراءِ أوّلٌ لا يُوقَفُ عليه" (60) . وقد حَاوَلَ بعضُهم التوفيقَ بين الرأيِ القائلِ بالحداثة والرأيِ القائل بالقِدم فاعتَبَرَ امرأ القيس ومُهلهل بن ربيعة أوّلَ من قصَّدَ القصائد ، أيْ أطال في حَجم النّصّ الشّعريّ ، أمّا قبلَهما فقد كان الرجلُ يكتَفي بقول البيْتِ أو البيتيْن ولا يُسَمَّى ذلك في نظرهم شعرًا .

ونحنُ أميلُ إلى الأخذِ برأي عُمَر بن شَبَّه . فإنّ للشّعر عندَ العرب أوّلاً لا يُوقفُ عليه الآن ، أو لم يُوقَفْ عليه بَعْدُ . فكما كَشَفَت النقوشُ عن قصيدةٍ تُعْرفُ بـــ"نشيد قانية" تَرجع إلى القرن الأوّل الميلادي – وقد كتبتْ بالعربيّة الجنوبيّة (61) – فليسَ من الصعب أن تُكتشَفَ ذاتَ يوم قصيدة أو قصائدُ كُتبَتْ بالعربيّة الشمَاليّة أثناءَ ما سمَّاه الجاحظُ الدّهورَ والأحْقَابَ ! ولقد استطاعَ بعضُ المحدَثين أن يُثْبتَ وُجودَ شعراءَ قد قصَّدوا القصائدَ قبل القرنِ السّادسِ الميلاديّ ، منهم ثمانيةٌ وعشْرون على الأقلّ كانت وَفَيَاتُهم

---

(57) الجاحظ : كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، 1938 – 1943 ، 74/1 .
(58) اليعقوبيّ : التاريخ ، 304/1 .
(59) ابن النديم : الفهرست ، ص 177 .
(60) السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، ط. 2 ، القاهرة (د.ت) ، 477/2 .
(61) Christian Robin : Les plus anciens monuments de la langue arabe, in : *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, 61 (1991/3), (pp. 113-125), pp. 122-125.

بين 220 م و500م . وهؤلاء همُ الذين يُسمّوْن الشّعراءَ الأوائل بحقّ (62) . وقد اعتمد فريقُ البحثِ في "**مدوّنة المعجم العربيّ التّاريخيّ**" شعرَ هؤلاء "الأوائل" فاستقرأهُ واعتبرهُ أقدمَ النّصوص الشّعريّة القابلة للتأريخ .

3 – 4 . في الانْتِقَال الشّفَويّ للشّعْر :

والقضيّة الرابعة هي "**الانتقالُ الشفويّ للشّعر**" . وهذه قضيّة أساسيّة بالنّسبة إلى التأريخ النصّيّ لأنها تثيرُ مسألةَ صلة النصّ الحقيقيّةَ بصاحبه . ذلك أن النّصّ إذا صدرَ عن صاحبه مَكتوبًا كان وثيقةً مُخْبِرَةً عنه إخبارًا حقيقيًّا ، فإذا صدَرَ عنه مُشَافَهَةً و لم يُدوّنْ في حينه صَارَ عُرْضةً لتغيير الرُّواة و"إصلاحاتهم" ، وإضافاتِ الحُفّاظ الذين يتنَاقلونَه عبرَ الأجيال ، فتضْعفَ قيمتُهُ الوثائقيّة لذلك ويُشَكّ عندئذ في تمثيله لصاحبه تمثيلاً تامّا . وهذا كان شأنَ الشّعر العربيّ في الجاهليّة ، بل وفي العصر الإسلامي الأول، أي حتى بدايات عصرِ بني العبّاس . فلقد كان للشعراء رُوَاتهم المختصُّون بهم لنقل أشعارهم عنْهم . وإذا كنّا نعْلمُ أنّ معظمَ الشعراءِ كانوا لاَ يعرفون القراءة والكتابَة – فذلك شرطٌ لأن يُعَدُّوا فُصحاءَ ويُحْتجَّ بشعرهم في اللغة ، وقد بالغَ علماءُ اللغة في ذلك مُبالغة شديدة – فإننا لا نعلَم هل كانَ الرواةُ المختصّون بالشعراءِ لا يعرفونَ القراءة والكتابة أيضا . ولا شكّ أن بعْضَ التّدوين للشعر قديمٌ ، سابقٌ للإسلام . فقد حدّثنا اليعقوبي – فيما نقله عنه أبو عُبَيْد البَكْري – عن تدوين مُلوك الحيرة للشعر : "أهلُ الحيرة كانوا أوّلَ من دوّن الشعرَ وكتبَه في أيّامِ آل المنذر اللّخميّين مُلُوكِهَا . وكانت شعراءُ الجاهليّة تفِدُ عليهم مثل الأعْشى والنابغة وعَبيد بن الأبرص وبشْر بن أبي خازم وعَمْرِ بن كلثوم والحارثِ بن حلّزة والمتلمّس وطرَفةَ وغيرهم . وكان آلُ المنذر يأمُرونَ كُتّابَهم من أهل الحيرة أن يكتبوا أشعارَهم ، فأخذَها النّاس عنْهم" (63) . ولنا أن نعتبرَ هذا الخَبَرَ صحيحًا ، لكنّه لا يحلّ إلاّ جزءًا من المسألة لأنّ كُتّابَ المناذرة في الحيرة لم يُدوّنوا من الشعرِ الجاهليّ إلا بعضَه ؛ ولذلك فإنّ غيرَ قليل من الشّعر الجاهليّ إنما وصلنا في عبارة غيرِ عبارة قائله الأصليّة . وذلك يفْرضُ على المعْجميّ المشتغلِ بالمعجَم

---

(62) ينظر عادل الفريجات : الشعراء الجاهليون الأوائل ، دار المشرق ، بيروت ، 1994، وهو عمل علمي جاد.
(63) ينظر النص في : أبو عبيد البكري : المسالك والممالك ، 1/428 (الفقرة 722) ؛ وينظر أيضا : ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، 1/25 .

التاريخيّ أن يَكونَ مُحَقِّقًا للنّصوص الشعريّة الجاهليّة التي يَعْتَمِدُهَا في التأريخ لوحدات المعجم في مُدوّنة الشّعر الجاهليّ المعجميّة ، متتبّعًا لقراءات القصائد والأبيات مُدَقِّقًا النّظَرَ فيها ، مقارنًا بين الرِّوايات ، وخاصّة إذا كانَ النصّ الذي يَعْتَمِدُ غيرَ مُحَقّقٍ تحقيقًا علميًّا يُطْمَأَنُّ إليه ، أو كانت للبيتِ الواحدِ قراءاتٌ مختلفة اتَّبَعَ المحقّقُ إحداها ورأى المعجميُّ فيها تقْصيرًا .

3 – 5 . قضيَّة اللغة :

والقضيّة الخامسة هي "قضيّة اللغة" . فإنّ جُلّ الشعر الذي وصلنا قد قيلَ في القرن السّادس الميلاديّ . وقد اتخذه علماءُ اللغة في القرنين الثاني والثالث الهجريّين حُجّة في وصف العربيّة : مُعْجَمِها ونحوِها ، لأنّه – في الصورة التي وَصَلَ عَلَيْهَا – دالٌّ على اتّفاقٍ عجيبٍ بين الشعراءِ في المعجَم والنحْو . فلقد كانُوا على اختلافِ عُصُورِهم وجهاتِهم ولَهَجاتِهم يَقُولُونَ الشعرَ بلغة واحدة ذاتِ نظامٍ مُحْكَم قد ظهرَ أثره واضحًا في القرآن الكريم . ولا شَكّ أنّ التمحيصَ الدقيقَ يُظهر بعضَ الخصوصيّات المعجميّة والنّحويّة في أشعارِ بعض القبائلِ مثل هُذَيْل وطيِّءٍ وكِندة ، أو أشعارِ بعض الجهاتِ مثل الحجاز ونجْدٍ واليمن ، مثلما ظهرتْ خصوصيّاتٌ في ما دوّنه العلماءُ في القرنين الثّاني والثّالث الهجريين عن الأعْرابِ من مُسْتَعْمَلِ اللغة . فلقد أقرّوا بوجود ما سمّوه "لغات" ، أي "استعمالات خاصّة" (64) ، لم يعتمدوها في الوصفِ لأنهم قد حَمَلُوا "على الأكثَرِ" ، أي اعتمدُوا الغالبَ المتواترَ من الاستعمال (65) . ولكنّ تلك الخصوصيّات ضعيفةُ الأثرِ – بل هي نادرةٌ – في ما وصلنا من شعرٍ جاهليّ . فليسَ فيه ما يدلُّ دلالَةً واضحةً على وجودِ ظواهر لغويّة شاذّة حقيقيّة . وظاهرةُ الاتفاق الملاحظةُ في لغة المدوّنة الشعريّة الجاهليّة مثيرةٌ لحيرةِ مُؤَلِّفِ المعجم العربيّ التاريخيّ بلا شكّ . وله الحقّ في أن يشكّ في

---

(64) الكتابات الحديثة في "لغات القبائل" ومظاهر الاختلاف بينها كثيرة ، نحيل منها خاصة إلى : جميل سعيد وداود سلوم : معجم لغات القبائل والأمصار ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، 1978 (جزءان) ؛ تشيم رابين : اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية ، ترجمة عبد الكريم مجاهد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2002 .

(65) ذلك كان مذهب أبي عمرو بن العلاء (ت. 154 هـ/771 م)، وقد غلب عليه المُعجم . فقد سئل عمّا وضعه ممّا سمّاه عربيّة وماذا يصنع فيما خالفته فيه العرب وهم حجّة ؟ فقال : "أعمل على الأكثر وأسمّي ما خالفني لُغات" – ينظر : الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص 39 ، وينظر النص في المزهر للسيوطي ، 184/1 – 185 ، وفيه "أحمِلُ على الأكثر" عوض "أعْمَلُ على الأكثر" .

صحّة تلك المدوّنة من منطلق لغويّ خالص ، وأن يتّهم عُلَمَاءَ اللغة الذين كان لهم دورٌ كبير في جمْع الشّعر وتدوينه بإفسادِ النّصوص وإخضاعِها لمقاييسِهم في استعمال اللغة ، أو لغاياتهم من الاستشهاد به . ولكنّ ذلك قد يكون صحيحًا مع بعضهم ، ولكنّه ليس صحيحًا مع جُلّهم . فلقد كانوا — في القرنِ الثاني الهجريّ خاصّة — ثقات يبحثُون عن الشاهدِ الصحيح الذي يُطْمَأَنُّ إلى اعتماده والاحتجاج به ، وكانوا يَتَحَرَّوْنَ الدّقة في بحثهم تحرِّيًا كبيرًا ، بلْ ظهرت عندهم — بداية من القرن الرابع الهجريّ — مسألة "الصحّة" في اللغة — جمعًا واستشْهادًا — مثلما ظهرت عند علماءِ الحديث مسألة الصحة في رواية الحديث . على أنّ الاطمئنانَ إلى نوايا اللغويّين الحسنة لا يُغْنِي مُؤَلِّفَ المعجمِ العربيّ التاريخيّ عن التثبّت والاحتياط ، بحثًا عن الشاهد الصّحيح نصّا ، ونسبةً إلى قائله .

4 — خاتمة :

تلك جملةٌ من القضايا التي يُثيرُهَا التأريخُ لمدوّنَةِ الشعرِ الجاهليّ المعجميّة ، أي التأريخُ لشواهدِ المعجم التاريخيّ للشعر الجاهليّ ؛ وليست هي في الحقيقة بالقضايا الهيّنة لما لتاريخ الشاهد من دور حاسم في التأريخ لظهور الوحدة المعجميّة المؤرّخة في المعجم التاريخيّ في الاستعمال . فإنّ الشاهد كالقطعة الأثريّة التي يُؤرَّخُ بها لمعلم من المعالم أو لحدث من الأحداث أو لظاهرة من الظواهر ؛ وتدقيق التاريخ ضروريٌّ لأنّ الخطأ فيه مؤدٍّ إلى الخطإ في نسبة المفردة إلى العصر الذي ظهرت فيه ، أو إلى الحقبة التاريخيّة التي ظهر فيها أحدُ المعاني التي دلّت عليها أثناء تاريخ استعمالها . فليس الشاهد في المعجم التاريخيّ إذن مجرّد نصّ يُوَثَّقُ به للمفردة أو يوضَّحُ به معناها أو يُستَدَلُّ به على تواتر استعمالها ، بل هو "شهادة ميلاد" في الاستعمال إمّا للوحدة المعجميّة المؤرّخة وإمّا لأحد المعاني التي دلّت عليها فكوّن حلقة من حلقات تطوّرها الدّلالي .

ولقد كان للقضايا التي أثرنا أثرُها في عمل فريق البحث التونسيّ أثناءَ جمْع المدوّنة والتأريخ للوحدات المعجمية التي اشتملت عليها . ولقد دلّتْ معالجتُها على أنّ مُؤَلِّفَ

المعجم اللغوي التاريخي مُضطرٌّ إلى أن يكون مؤرّخًا ، وآثاريًّا ، ومحقّقًا للنصوص ، وناقدًا للأدب ، إضافةً إلى كونه لغويًّا مُعْجَميًّا .

إبراهيم بن مراد

كليّة الآداب بمنوبة ، تونس

مراجع البحث

1 – المراجع العربية والمعرّبة :

ابن مراد ، إبراهيم : الوحدة المعجميّة بين الإفراد والتضام والتلازم ، في مجلّة الدّراسات المعجميّة ، (الرباط) ، 5 (2006) ، ص ص 23 – 31 .

ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق : كتاب الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ، 1971 .

أبو الفرج الأصفهاني : كتاب الأغاني ، ط. بولاق ، 1285 هـ (20 جزءا) .

بعلبكي ، رمزي منير : الكتابة العربيّة والساميّة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1981.

البكري ، أبو عُبيْد عبد الله بن عبد العزيز: المسالك والممالك ، تحقيق ادريان فان ليوفن (A. P. van Leeuwen) واندري فيري (A. Ferre) ، بيت الحكمة ، تونس ، 1992.

التوحيدي ، أبو حيّان : الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ، القاهرة ، 1939- 1944 (3 أجزاء) .

التيفاشي ، أبو العباسٌ أحمد : أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمد بسيوني خفاجي ، القاهرة ، 1977.

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : – رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت، 1991 (4 أجزاء) .

– كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، 1938-1943 (7 أجزاء).

الجمحي ، محمد بن سلام : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط. 2، القاهرة، 1974 .

حسين ، طه : في الأدب الجاهلي ، ط. دار المعارف بمصر ، القاهرة (د.ت).

الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن : طبقات النحويّين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط.2 ، دار المعارف بمصر ، القاهرة [1984] .

سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان : الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، 1966-1977 (4 أجزاء وجزء للفهارس) .

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن : المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، ط. 2 ، القاهرة (د.ت) ، (جزءان) .

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق جماعة من المستشرقين بإشراف دي خويه (M. J. De Goeje)، ط. 2 ، بريل (E. J. Brill)، ليدن، 1964 ، (مصورة عن الطبعة الأولى الصادرة بين 1879 - 1901) ، (3 أقسام كبرى في 13 جزءا وجزئين للفهارس والتعاليق ومعجم للغة) .

علي ، جواد : تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزء السابع : القسم اللغوي ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، 1957 .

الفريحات ، عادل : الشعراء الجاهليون الأوائل ، دار المشرق ، بيروت ، 1994 .

المعري ، أبو العلاء : رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمان ، ط 8 ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، [1990] .

اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب : التاريخ ، تحقيق هوتسما (M. Th. Houtsma) ، بريل – ليدن ، 1969 (مصورة عن طبعة 1883) ، (جزءان) .

اليغموري ، أبو المحاسن يوسف بن أحمد : نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء للمرزباني ، تحقيق رودلف زلهايم (Rudolf Sellheim)، فياسبادن ، 1964 .

2 – المراجع الأجنبية :

Blachère , Régis : *Histoire de la littérature arabe, des origines à la fin du XVe siècle de J. C.* Maisonneuve, Paris, 1952-1966 (3 vols) .

Rey , Alain (dir) : *Le Robert. Dictionnaire historique de la langue française.* Les Dictionnaires LE ROBERT, Paris, 1992 (2 vols).

Robin , Christian: Les plus anciens monuments de la langue arabe, in : *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, 61 (1991/3), pp. 113-125 .